

التصوف فى الأدب

عمر الخيام - أمن المتصوفة - ترجمة رباعياته

نريد « بالتصوف » ما يطلقون عليه فى بلاد الغرب كلمة « مستيزم » وهى كلمة من أشق الأمور أن يعالج المرء تعريفها على وجه الدقة ، إذ كانت تدل على حالة من حالات الفكر ، أو الاحساس ، تبدو مقرونة بمحاولة العقل الإنسانى أن يتغلغل إلى حقائق الأشياء وأن يستجلى صفاتها الربانية ، أو الاستمتاع بنعمة الوصول إلى الذات العلية والاتصال بها والتسرب فيها ، ومن هنا ظهر التصوف فى الفلسفة والأدب ، وفى الدين كذلك .

وهذه النزعة عريقة فى العقل الإنسانى ، وليست بالشاذة ولا النادرة . ولكن الناس ليسوا سواء فى قوة الذهن وقدرته على توضيح ما يعرض له وجلاته ، ولا فى صلابة الإرادة التى تعين على مواصلة الالتفات . والمرء إذا لم يرزق القوة والإرادة استراح إلى الأحلام ، واستسهل أن يطلق لخياله العنان ، إذ كان هذا أقل كلفة وأيسر مؤونة ، وكان لا يتقاضى المرء من الجهد ما تتقاضاه الملاحظة والوزن ، على أن المرء لا يكاد يكون له خيار فى ذلك ، فإذا عدم الإرادة التى تؤتبه القدرة على الالتفات استهدف للأخطاء ، وغاص فى ليجج من الخرافات ، واعتل رأيه فى الصلات الكائنة بين الظواهر المجتلاة ، وفسد حكمه على الوجود وصفات الأشياء وعلاقتها ، ولم يستطع وعيه أن يأخذ إلا صورة مشوهة غامضة للعالم الخارجى ، وضعف تمييزه ، واختلط الخليل بالنابل فى خواطر ذهنه - إذا صح هذا

التعبير - وماج بالمختلف والمؤتلف منها ، وبالواضح والمستبهم ، وعانت
الخواطر - بحكم اتصالها - بلا كايح ، وراحت تظهر أو تختفى من تلقاء
نفسها ومن غير أن يكون لإرادة عمل ما فى تقويتها أو نفيها ، واستدعى
احتفاظُ الوعي بجمهرتها فى وقت معاً أن تتكون من خليطها فكرةً
مضطربة غير صادقة فى تصوير العلاقات بين الظواهر . وقد ضرب نوردאו
فى هذا الصدد مثلاً لذهن الرجل الضعيف قال « كل من حاول فى ليلة
مظلمة أن يستجلى ظاهرة بعيدة يستطيع أن يحضر لنفسه الصورة التى يرسمها
عالم الفكر لذهن الرجل الضعيف . انظر ثم ! كلمة مظلمة ! أى شىء
هى ؟ شجرة ؟ كوم من الدريس ؟ لص ؟ حيوان مفترس ؟ أبنغى أن أفر ؟
أم يجب أن أحمل عليه ؟ ويعود العجز عن استبانة الشىء - الذى يحزره
ولا يراه - مدعاة لاشاعة الخوف والقلق فى نفسه . وهذه هى الحالة التى
يكون عليها عقل الرجل الضعيف تلقاء ما يأخذه وعيه ، فيروح يعتقد أنه
يرى مائة شىء فى وقت معاً ، ويصل ما بين الصور التى يخيل له أنه
يتبينها وبين الخاطر الذى كان مثارها ، على أنه يحس مع ذلك أن هذه
العلاقة لا مفهومة ولا معللة ، ولكنه مع هذا يؤلف من أشتات ما فى
ذهنه ، فكرة تناقض كل تجربة ولكنه مضطر أن ينزها من الصواب منزلة
غيرها من آرائه وخواطره إذ كانت كلها قد نشأت على هذا النحو ...
وهذه الحالة الذهنية التى يحاول المرء معها أن يرى ، ويعجب أنه يرى وهو
لا يرى . ويفضطر أن يؤلف فكرة من خواطر تضلله وتسخر من وعيه ؛
وتخيل له أنه يدرك علاقات مستسرة بين الظواهر الواضحة والظلال الغامضة
الملائمة - هذه هى الحالة العقلية التى تسمى التصوف . »

فهى حالة مرجعها إلى ضعف الإرادة ضعفاً تمتنع معه القدرة على
« الالتفات » أى مواصلة الملاحظة والتمييز .. ولكن هناك نوعاً آخر من

التصوف لم يفت نورداو أن يلتفت إليه ، وقد عزاه بحق إلى الاضطراب فى حساسية الذهن والجهاز العصبى ، وهو اضطراب يُنتج التصوف العملى ويفضى إلى الهذيان والغيوبة حين يبلغ من عنف حركة الجزء المهتاج من الذهن أن يتعطل عمل سائره . ويعود المرء وهو لا يحس ما حوله لاستفراق خاطر واحد أو طائفة من الخواطر للوعى كله وتمتزع الغبطة والألم . ولا شأن لنا بهذا الضرب من التصوف .

وقد لا نخطئ كثيراً إذا قلنا إن التصوف فى بلاد الشرق متفرع من فلسفاتها السائدة ، وإنه عبارة عن الاحساس الدينى فى حيشما ظهر ، ولكنه فى الهند غيره فى فارس مثلاً . وذلك أن البرهمية التى تقول بتأليه الكون ووحدته ، والبوذية التى تذهب إلى العدمية - كلاهما ينكر حقيقة العالم الظاهر ويدعو إلى التسرب فى الغاية العليا ، وكلاهما يعصف بالاحساس بقيمة الشخصية الإنسانية ، وقد علل الأستاذ أندرو برنجل باتيسون - شيوع التصوف فى الهند بطبيعة الاقليم وما يغرى به المناخ من التسليم والفتور ، وبأن فرط الخصب فى حياتى النبات والحيوان هناك يولد الاحساس بقيمة الحياة . أما الصوفية الفارسية فأقل حدة ، وهى أطف وأرق ، والصيغة الأدبية فيها أعم . والمطلع على تاريخ الأدب الفارسى يجده بعد القرن التاسع مشبعاً بروح البانثيزم (وحدة الكون وتأليهه) ولكن الادراك الصوفى لوحدة الأشياء وألوهيتها يزيد ويضاعف التناذ الجمال الطبيعى والإنسانى ولا يفتره أو يصرف عنه . وهذا ملحوظ فى شعر حافظ والسعدى وغيرهما ممن كثر فى شعرهم التغننى بالخمى والفرل تغنياً خرج المفسرون تخريجاً آخر وأولوه بغير الاستفادة من لفظه فزعموا ما فيه من ذكر لذات الحب رمزاً لغبطة الاتصال بالذات العلية ، وادعوا أن الخمارة اسم مستعار للمعبد وأن نشوة الخمر هى ذهول الحس . ولا شك أن لهؤلاء الشعراء

قصائد بعث عليها الاحساس الدينى فى أول الأمر ، وهذه تغلب عليها الباتنيزم ، وتحس فيها حرارة الرغبة فى خلاص الروح واتصاله بالله . ولعل هذه الحالة التى تعتر بهم أحيانا وتغريهم بعد الطبيعة والجمال ومتع الأرض عبثا وباطلاً - رد فعل نلاغراق فى التماس اللذذات وإفراط فى إرضاء الجسم ، أو لعلها الجانب الآخر للصورة .

ومن شعراء الفرس الذين ذاع صيتهم وسار ذكرهم فى الشرق والغرب عمر الخيام . وقد حاول بعض النقاد أن يزوج به فى زمرة المتصوفة من شعراء الفرس وأن ينفي عنه ما يدل عليه ظاهر ألفاظه ، وأن يخرج كلامه على نحو ما أسلفنا ، وأن يدفع عنه تهمة الايقورية جهلاً كما سترى . ولكن الواقع ، كما قال مترجمه إلى الإنجليزية فترجرالد ، إن عمراً لم يكن أبغض إلى أحد منه إلى متصوفة عصره الذين كان يسخر منهم ويركبهم بالدعابة والتهكم « وإنه لما عجز أن يهتدى إلى شىء سوى القدر أو دنيا غير هذه - بالغا ما بلغ خطؤه فى ذلك - قنع بحظه المقسوم له ، وآثر أن يرفه عن نفسه من طريق الخواس على أن يرهق نفسه باستجلاء الغوامض » .

على أنه كانت له مهمة تنأى به عن التصوف ، ذلك أنه كان رياضياً بارعاً . ومما يذكر له فى هذا الباب تنقيحه التقويم السنوى تنقيحاً أظهر فيه من الحدق والأستاذية ما أطلق لسان جيون المورخ الانجليزى بالثناء عليه . وله كذلك طائفة من الجداول الفلكية ومؤلف فى علم الجبر بالعربية . والذهن الرياضى مجاله وعمله ضبط الحدود والحصر ، وتعليق النتائج بأسبابها ، والمعلول بعلمه ، وهو عمل يتطلب من الدقة والعناية والترتيب والتبويب ما لا يطيقه أو يقوى عليه ذهن المتصوف . ومن العجيب أن فترجرالد لم يفتن إلى دلالة هذا ولا خطر له أن يسوق هذه الحجة فيما ساقه لتبرئة الخيام من التصوف .

وأمامي - وأنا أكعب هذه السطور - « خيامان » ، الخيام الذي صوره لنا فتزجرالد في مائة وأربع وعشرين رباعية أفاض عليها من روحه هو ، والخيام الذي يرسمه الأستاذ أحمد حامد الصراف مترجمة من الفارسية إلى العربية نثرًا ، في مائة وثلاث وخمسين رباعية أكثرها لا تجده في فتزجرالد ، والشاعر أحمد رامى مترجمة عن الفارسية شعراً ، والقليل المشترك مختلف حتى ليرتد المرء في الجزم بأن هذه الرباعية هنا هي تلك هناك . وإذا كانت ترجمتا الأستاذ الصراف والشاعر رامى دقيقتين - ويظهر أنهما كذلك ، فما نعرف الفارسية - فيخيل إلينا أن فتزجرالد عمد إلى الرباعيات المتشابهة فصاغ منها واحدة استغنى بها عن التردد والتكرار . مثال ذلك ، أن الخيام - في ترجمة الأستاذ الصراف - يكرر في عدة رباعيات الدعوة إلى قلة الاكتراث ليومين : اليزم الذي مضى ، واليوم الذي لم يأت ، فيقول مثلاً في رباعية :

« ذهبت أيام العمر القليلة كالماء في الوادي ، أو الريح في البيداء ، أنا لا أعتم ليومين من الأيام ، اليوم الذي لم يأت واليوم الذي مضى » .
وفي أخرى يقول :

« لا تذكر اليوم الذي مضى ، ولا تجزع من غد لم يأت بعد - طب نفساً ولا تنقص عيشك » .

فيجيء فتزجرالد ، ويعجن هاتين الرباعيتين بما هو شائع في أكثر الرباعيات ، ويخرج من هذا المزيج رباعية يقول فيها^(١) :

هات لي الكأس فما يجدى الفطن كيف يطوى تحت رجليه الزمن
قد قضى أمس ، ولم يولد غد فكفانا اليوم ، فاليوم حسن

(١) قد تصان نحن رباعيات فتزجرالد (Fitzgerald) وراعينا في ترجمتها الدقة بقدر ما وسعنا وأثبتنا الأصل إلى جانبها - المازني .

AH, FILL THE CUP: WHAT BOOKS IT TO REPAT
HOW TIME IS SLIPPING UNDERNEATH OUR FEET:

UNBORN TO-MORROW AND DEAD YESTERDAY,
WHY FRLT ABOUT THEM IF TO-DAY BE SWEET !

ويظهر أن فتزجرالد راقه قول الخيام إن أيام العمر القليلة ذهبت كالماء
فى الوادى أو الريح فى البيداء ، ورأى هذا المعنى مكرراً فى بعض ما ينسب
إلى الخيام - وهو كثير - فنظم فيه رباعية تحرى فيها أن يصدر عن روح
الخيام ، فقال :

كم بذرنا حكمة العقل سواء وتعهدت بكفى النماء^(١)
وتأمل : ها حصادى كله : جئت كالماء ، وأمضى كالهواء

WITH THEM THE SEED OF WISDOM DID I SOW,
AND WITH MY OWN HAND LABOUR'D IT TO GROW !
AND THIS WAS ALL THE HARVEST THAT I REAP'D
"I CAME LIKE WATER, AND LIKE WIND I GO."

ومن أمثلة تصرفه الحسن أنه نقل قول الخيام :
« سمعت هاتفاً فى السحر من حانتنا يقول : ايه يا أنخا الشراب المفتون ،
قم لئملأ الكأس بالخمير قبل أن يملأوا كأسنا » .

وقد نظمها رامى فى هذه الرباعية :

سمعت صوتاً هاتفاً فى السحر نادى من الحان : غفاة البشر
هبوا ، املاؤا كأس الطلى قبل أن تفعم كأس العمر كف القدر

(١) من ترجمتنا نحن ، عن فتزجرالد .

فنتحها وجعلها هكذا :

بينما أحلم ، والفجر رطيب ، طرق السمع من الحان، مهيب^(١)
« كأسكم ! من قبل أن تؤذنكم كأس محياكم بمحتوم النضوب »

DREAMIND WHEN DAWN'S LEFT HAND WAS IN THE SKY,

I HEARD A VOICE WITHIN THE TAVERN CRY,

"AWAKE, MY LITTLE ONES, AND FILL THE CUP

BEFORE LIFE'S LIQUOR IN ITS CUP BE DRY."

ولا شك أن نضوب الحياة أشبه بمعنى الموت من امتلاء كأسها .

ومن أمثلة هذا التصرف المعقول المحمود أن الخيام يقول :

« نحن الأعيب أطفال ، والفلك هو اللاعب بنا ، ذلك أمر حقيقى غير
مجازى ، لقد لعبنا مدة فى ساحة الوجود ثم ذهبنا إلى صندوق العدم
واحداً بعد واحد . »

وترجمها رامى هكذا :

وإنما نحن رخاخ القضاء ينقلنا فى اللوح أنى يشاء
وكل من يفرغ من دوره يلقى به فى مستقر الفناء

فتناولها فترجرالد ، وزاد التشبيه وضوحاً فجعله هكذا :

هذه رقعة شطرنج القضاء ولها لوانان : صبح ومساء^(٢)
ننقل الخطوب بها كيف يشاء ثم تطوينا صناديق الفناء

TIS ALL A CHEQUER-BOARD OF NIGHTS AND DAYS

WHERE DESTINY WITH MEN FOR PIECES PLAYS;

(١) من ترجمتنا نحن ، عن فترجرالد .

(٢) من ترجمتنا نحن عن فترجرالد .

HITHER AND THITHER MOVES, AND MATES, AND SLAYS
AND ONE BY ONE BACK IN THE CLOSET LAYS.

ولا شك أن المعنى فى رباعية فترجرالد ، أتم وأشد بروزاً منه فى الترجمة الحرفية النثرية لرباعية الخيام ، وأوضح منه فى رباعية رامى ، والنشبية مستوفى من جميع نواحيه ، وهو فوق ذلك أجمل وأبرع ، وإن كان عيبه أننا لا ندرى أى ثان للقضاء أمام هذه الرقعة ؟ أم ترى القضاء عنده عابث يلاعب نفسه ؟

ومن أمثلة التصرف الشديد أن للخيام هذه الرباعية :
« كأس ، وخمر ، وساق فى روضة ، خير من الجنة التى وعدتها .
لا تسمع من أخذ حديث الجنة والنار - من ذا ذهب إلى الجحيم ؟ ومن
ذا جاء من الجنة ؟ » .

ويظهر أن هناك رباعية أخرى تشبهها فى الفارسية ، فقد وجدنا بين
ما اختاره الشاعر رامى هذه الرباعية :

زجاجة الخمر ونصف الرغيف وما حوى ديوان شعر طريف
أحب لى إن كنت لى مؤنسا فى بلقع من كل ملك منيف

ورباعية فترجرالد صنو رباعية رامى إلا أنها أكثر اتزاناً :
وبحسبى تحت أفنان رطاب زق خمر ورغيف وكتاب^(١)
وتغنين ، فيرتد اليباب مثل همى ، من فراديس رغاب

HERE WITH A LOAF OF BREAD BENEATH THE BOUGH,
A FLASK OF WINE, A BOOK OF VERSE AND THOU

(١) من ترجمتنا نحن عن فترجرالد .

BESIDE ME SINGING IN THE WILDERNESS-
AND WILDERNESS IS PARADISE ENOW .

والرغيف كنبصف الرغيف فى الدلالة على الكفاف ، وليس وجوده كاملاً بالترف حتى يكون تنصفه رقة حال ، وتخيّل المرء أن القفر انقلب شبيهاً بما تشتهيهِ النفس من نعم الجنة والعيشة الراضية ، أقرب إلى طبيعة الإنسان وأشبه بروحه من أن يذهب يفضل اجتماع هذه الثلاثة على الملك المنيف والعيش الرغيد ، وقد اكتفى فتزجرالد بتصوير ما ينشده الشاعر الخيام - كما فهمه هو - فى حياته ، زق خمرة يسرى به عن نفسه فتخرس ألسنة الهواتف التى لا تفتأ تذكره بالحياة والموت والقضاء والقدر ، ورغيف يرمز به إلى القناعة ويدل به على أنه ليس مبطّاناً هم المعدة وما تكظ به ، وديوان شعر أو كتاب فى ذكره إشارة كافية إلى حياته العقلية والنفسية وإلى أن القائل - وهو شاعر - ليس مجرد حيوان ، واحتفظ فتزجرالد بالساقية ، أو المؤنسة ، ولكنه تلطف وارتنى بها ولم يذكر صفتها ، وجعلها أشبه بالحبيبة تغنيه ، والموسيقى غذاء الروح ، وهى صنو الشعر ومن معدنه ، ثم آثر الاعتدال فى التعبير فقال : إذا اجتمع هذا صارت اليبداء « كأنها » الفردوس المشتهى .

وهناك رباعية قوية ترجمها كل من فتزجرالد ورامى ، ولم نعرث عليها فى ترجمة الأستاذ الصراف ، أما رامى فصاغها هكذا :

لن يرجع المقدار فيما حكم وحملك الهم يزيد الألم
ولو حزنّت العمر لن يمنحى ما خطه فى اللوح مر القلم

أما فتزجرالد ، فتناولها من آخرها ليزيد المعنى بروزاً وتأكيّداً وليقويه

فهو ، يقول :

أبدأ يسطر ، ما شاء ، القلم ثم يمضى - نافذ الحكم أصم^(١) !
ليس يمحو نصف سطر ورع لا ولا يفله دمع سجم !

THE MOVING FINGER WRITES, AND HAVING WRIT,

MOVES ON: NOR ALL THY PIETY NOR WIT

SHALL LURE IT BANCK TO CANCEL HALF A LINE.

NOR ALL THY TEARS WASH OUT A WORD OF IT

والابتداء هكذا أرورع فى تصوير القدر : فالقلم يخط فى اللوح ، فإذا
خط مضى شأنه ونفذ الحكم ولم يجد فى رد القضاء لا ورع
ولا بكاء !

وتم رباعيات لم نجدها فى ترجمة الصراف ورامى وإن كانت قوية
وهى هذه كما نظمها فترجرالد :

كرة تذهب فى كل اتجاه ما لها إلا الذى شاء الرماه^(٢)
إن من ألقاك فى ميدانه هو يدرى - هو يدرى - لاسواه

THE BALL NO QUESTION MAKES OF AYES AND NOES,

BUT RIGHT OR LEFT AS STRIKES THE PLAYER GOES,

AND HE THAT TOSS'D THEE DOWN INTO THE FIELD,

HE KNOWS ABOUT IT ALL - HE KNOWS - HE KNOWS !

يعنى الإنسان - لا رأى له فى حياته ولا إرادة .

ثم هذه الصرخة الخارجة من أعماق القلب :

أيه أملهنى بصحراء البيود أنذوق سر ينبوع الوجود !
أفل النجم - مضى الركب إلى فجر «لاشئ» - فعجل يامجدو!

(١) من ترجمتنا نحن عن فترجرالد .

(٢) من ترجمتنا نحن عن فترجرالد .

ONE MOMENT IN ANNIHILATION'S WASTE,
ONE MOMENT, OF THE WELL OF LIFE TO TASTE -
THE STARS ARE SETTING AND THE CARAVAN
STAR FOR THE DAWN OF NOTHING - OH, MAKE HASTE

فماذا هو هذا الخيام ؟ ما هى الصورة النفسية التى تخلص لنا من
رباعياته هذه وأمثالها ؟

الخيام الذى يصوره فتزجرالد فيما اختار من رباعياته ، شاعر ، لا يرتقى
إلى الطبقة الأولى ولا يقاربهها ، ولكنه شاعر له نظره وروحه وإلهامه ،
أما فى الترجمتين العربيتين عن الفارسية ، فهو يقصر عن ذلك ولا يرتفع
إلى مستواه ، فهو مثلاً ينهض إذا انبثق الفجر ليسكر ، أو كما يقول الشاعر
رامى :

شقت يد الفجر ستار الظلام فانهض وناولنى صبوح المدام
فكم تحيينا له طلعة ونحن لا نملك رد السلام

ولكن فتزجرالد بهمل هذا الصبوح ويضرب عن ذكر الخمر كراهة
منه لاستقبال الشاعر جمال الفجر وهو مخمور ، وللخمر فى كل رباعية
مما ترجم فتزجرالد علته المفهومة الراجعة فى مرد أمرها إلى أسلوب تفكير
الشاعر ، فهو يشرب لأن الحياة وشيكة الزوال ، وكأس العمر ككأس
الشراب ما أسرع ما تنتضب : ولأن المقام فى هذه الدنيا قليل ، والذاهب
لا يرجع ، أو لأن الشراب يتعش النفس ويشعرها بهجة الريح ويطرح عن
العائق ثوب الندامة الشئوى الذى يقوس الظهر ويحتى القنأة ، أو لأن الخمر
تزرر له الحياة وتحلى مرارتها وتخفف وقعها ، وتخيل إليه نشوتها أنه ممتع
بما تشتهي نفسه وما هو محروم منه ، أو لأنها تبدوله أحياناً كالنقد ، وهو
خير من نسيئة الخلد ، أو لأنها تجلو الصدر من الأسف على ما مضى

أو الخوف مما هوأت ، وتوقيه التفكير فى الغد ، وما الغد ؟ قد يلحقه الغد
بالأمس الذى ينطوى فيه سبعة آلاف سنة ، أو لأنه يريد أن يغتتم فرصة
هذه الحياة أو ما بقى منها قبل أن يصبح ترابًا فى تراب ، فهو يضع
الحياة أمام الموت فيعصر قلبه قصر الأجل ، وتهوله رقدة الموت الأبدية
فيصيح :

ايه دعنى أغتتم هذا المدى قبل أن يطوى ترابى فى الثرى^(١)
حيث لا خمصر ولا شدو ، ولا قينة ، كلا ! وما من منتهى !

AH, MAKE THE MOST OF WHAT WE YET MAY SPEND,
BEFORE WE TOO INTO THE DUST DESCEND;

DUST INTO DUST, AND UNDER DUST, TO LIE,
SANS WINS SANS SING, SANS SINGER, AND - SANS END !

أو لأنه قتنع بعث الجدول لبحث يعد يجب أن يعنى نفسه بمعاودة هذا
العبث :

نحضت فى عهدى غمار الجدول وسمعت الشيخ يتلوه الولي^(٢)
غير إنسى كنت ألفسى أبدًا مخرجى - بعد عنائى - مدخلى!

MYSELF WHEN YOUNG DID EAGERLY FREQUENT
DOCTOR AND SAINT, AND HEARD GREAT ARGUMENT
ABOUT IT AND ABOUT; BUT EVER MORE

CAME OUT BY THE SAME DOOR AS IN I WENT

أو لأنه يريد أن يغرق فى الكاسات. ذكرى فضول التساؤل : من أين
جىء به ؟ وإلى أين به ؟ ولأن التفكير لم يفتح له الباب الذى عالجه ولم

(١) من ترجمتنا نحن عن فتزجرالد .

(٢) من ترجمتنا نحن عن فتزجرالد .

يرفع الستر الذى حاول أن يباحه ، أو لأنه ، يس من قدرة عقله المحدود
أو فهمه الكفيف عن استكناه سر الحياة ، فهو يصيح :

صحت - حيران- بأجواز السماء « أى نبراس به يهدى القضاء^(١)
صية تعثر فى هذى الدجى ؟ » فأجبتى « بمكفوف الذكاء ؟ »

THEN TO THE ROLLING HEAV'N ITSELF I CRIED,

ASKING "WHAT LAMP HAD DESTINY TO GUIDE"

"HER LITTLE CHILDEN STUMBLING IN THE DARK ?"

AND - "A BLIND UNDERSTANDING !" HEAV'N REPLIED.

ولهذا عاذ بالكأس :

عذت بالكأس ، لعلى بقمى أستقى سر الحياة الأعظم^(٢)
فأسرت شفة الكأس « أرتشف ! ما لميت رجعة من عدم ! »

THEN TO THIS EARTHEN BOWL DID I ADJOURN

MY LIP THE SECRET WELL OF LIFE TO LEARN:

AND LIP TO LIP IT MURMUR'D - "WHILE YOU LIVE

"DRINK ! - FOR ONCE DEAD YOU NEVER SHALL RETURN"

ولا خير بعد ذلك فى تساؤل أو تفكير ، ولماذا يطيل عناءه ويعذب
نفسه بالجدل والمحاولة ؟ أليس الأولى به أن يسكر ويطرب ؟ أليس هذا
خييراً من أن يخرج بالكآبة والأسى وبلا محصول ، أو بالمر من الثمر ؟ ولهذا
طلق العقل وباعد ما بينه وبين التفكير والبحث :

يا أخلاى لقد كنتم شهودى حين دار القصف فى عرسى الجديد^(٣)
طلق العقل عقيماً وغدنت بنت هذا الكرم زوجى وعقيدى

(١) من ترجمتنا نحن فترجرالد .

(٢) من ترجمتنا نحن عن فترجرالد .

(٣) من ترجمتنا نحن عن فترجرالد .

YOU KNOW, MY FRIENDS, HOW LONG SINCE IN MY HOUSE
FOR A NEW MARRIAGE I DID MAKE KAROUSE:

DIVORCED OLD BARREN REASON FROM MY BED,
AND TOOK THE DAUGHTER OF THE VINE TO SPOUSE.

وإذا كان النبيذ الذى تشربه ، والشفة التى تلتهمها يصيران إلى
« اللأ شىء » الذى هو نهاية كل شىء - فما عليك ما دمت حياً إلا أن
تتصور أنك ما أنمت صائر إليه - لا شىء - فلن تكون أقل من ذلك .

وإذا كان قد انتهى إلى اليأس فهو لا يرى خيراً فى أن ترفع بصرك إلى
السماء مبتهلاً ، متمسكاً المعونة ، فإن السماء مثلك لا حول لها ولا قوة ،
ولا هى تملك من أمرها إلا كما تملك أنت .

فهو يشرب للخمر - لا لأنه عرييد مستهتر ، أو بليد كئيف مغلق
النفس ، بل لأنه ، عالج لئز الحياة فأعياه وأضناه ، وحرقه ، وألرقه ، وأطار
صولبه ، واحتجاجة للخمر فى رباعيات ختجرالد اعتذار على الحقيقة ،
ينطوى على ادراك صحيح لقيمة هذه التعلة وأنها ليست أكثر من مسكن
يخدر الحسن ويفتر الشعور وينيم العقل ويقلب نسب الأشياء أو يضعف
ما يجده المرء من وقعها .

وليس كذلك شرب الخيام للخمر فيما ترجمه الصحابان : الصراف
نثراً ، ورامى شعراً - عن الفارسية ، فهو هنا سكير « عاقر الكأس فى
مجلس الحبيب ليلاً » كما يقول صديقنا رامى فى مقدمته « فى ضوء القمر ،
وسحراً عند طلوع الفجر ، ومساء عند غروب الشمس على نغم الناي
والرباب فى الربيع ، على شفا الوادى وعلى ضفاف الغدير بين الزهر المنقر
والجو العيق ، فإذا ذكر حرمانه من الخمر بعد الموت طلب أن يغتسل
بها ، وأن يقعد تعشه من كرمها حتى إذا بلى جسمه تمنى لو تصاغ منه
الدنان والأقداح ، فإذا خاف ألسنة السوء قال لا تهتم بالناقدين . ارض

نفسك قبل أن ترضى الناس . لا تظهر التقى واسخر من المترهدين واعلم أنه ليس في العالم إنسان كامل . وقد أحب من الخمر حتى طعمها المر ولونها الصافي ، وأحب كأسها الشفافة وذنبا الملائن . وكان يجد السعادة في مجلس الشراب بين الصاحب والنديم .

ويخيل إليك وأنت تقرأ رباعياته المترجمة إلى العربية عن الفارسية كأن الخيام « كأولاد البلد » لبناء الجيل الماضي في مصر ، ممن كان همهم أن يحيا الليل بالشراب والطرب والأنس ، فإذا تنفس الصبح عادوا بمخادعهم وأسدلوا الأستار وحجبوا الضوء وألقوا رؤوسهم على الوسائد وناموا . ولا تعدم من هؤلاء أيضًا فلسفة ، فقد تسمع منهم قولهم ان العمر قصير ، وان المنايا راصدة ، وان العصفور في اليد خير من ألف عصفور على الشجرة وبعد رأسى لا كانت الدنيا ، إلى آخر هذه الكلمات التي تخطر بكل بال وتكاد تجرى على كل لسان ، والتي هي من الشيوخ والابتذال بحيث لا تستحق تكريم الارتفاع بها إلى مستوى النظرات في الحياة .

فهو يقول مثلاً فيما ترجمه رامى :

أين النديم السمح؟ أين الصبوح؟
فقد أمض المم قلبى الجريج
خمر وأنغام ووجه صبيح
ثلاثة من أحب المني

أو يقول :

طبعى اتناسى بالوجوه الحسنان
وديدنى شرب عناق الدنان
فأجمع شتات الحظ وانعم بها
من قبل أن تطويك كف الزمان

أو يقول :

لا تشغل البال بماضى الزمان
ولا باتى العيش قبل الأوان
راغم من الحاضر لذاته
فليس فى طبع انليالى الأمان

أو يقول :

وهي بجوف الدن روح لطيف
فإنما للخمر ظل خفيف !

الخمر في الكأس خيال ظريف
أبعد ثقيل الظل عن مجلسي

أو يقول :

لم ير مثل الخمر ، شيء بديع
بماله أحسن مما يبيع

مذ أبدع الكون العليم السميع
عجبت للخمار ، هل يشتري

أو يقول :

في مجلس تحييه كأس تدار
هدى الطلى كل المنى والخيار

أنا الذي عشت صريع العقار
فعد عن نصحي ، لقد أصبحت

إلخ ...

فهل ترى أن معاني هذه الرباعيات ترتفع عن طبقة المواويل والموشحات التي كانت تغنى في ليالي « الضمم » في الجيل الماضي ؟ وهل ترى الخيام فيها إلا « ابن بلد » قح من ذلك الطراز الذي عفى عليه العصر الحاضر ؟ وهل ذكر الأيام والفناء والأقدار هنا وفي أمثال هذه الرباعيات يشعرك لفتح الحرارة التي نحسها من رباعيات فترجرالد ، وألم الجنون من عجز الشاعر عن حل الألغاز التي يعالجها وفك المعميات التي يعانيتها وكشف الأسرار التي يغوص عليها ؟ والخيام في رباعيات الصاحيين ، سكير ظريف ، وأنيس حصيف ، وجليس خفيف ، وذكر الموت على لسانه معسول ، لا يفرغ والكلام على القضاء والقدر لا تحس أنه يدور على غير اللسان ، ولكن الأمر في رباعيات فترجرالد غير ذلك ، والحال على خلافه ، هناك الخمر ملجأ من مخوف المواجه ومرعب الخواطر ، وحمى من الجنون الذي أحسه وهو يواجه عالم الفناء اللانهائي ، أو « اللاشيء » الذي هو

مآل الاحياء فيما هداه تفكيره ، ولسخره لذعة تحس أنت أنه هو أحسها ،
 ولعبته المتكلف كى أليم ، وهو يضعك أمام ما انتهى إليه من الحقائق المرة .
 ولعل فضل فترجرالد أنه أضاف إلى الخيام روح الاتزان فتعادلت المرارة
 والتهكم ، وتكافأ الهم والاستخفاف ونضح على كتابة النفس ماء الورد ،
 وأطلق إلى جانب الفزع ضحكة ، ليعتدل الميزان ، ونقول بإيجاز ان الخمر
 فى رباعيات الصاحيين هى الأصل ، ولكنها فى رباعيات فترجرالد هى
 النوط الذى يعلق عليه الشاعر آراءه . ولعل الخيام لم يكن كذلك ، ولكنه
 هكذا أحلى وأشعر ، ولا ذنب للشاعر رامى ولا للأستاذ الصراف ، وإنما
 الذنب للأصل ، وهما خليقان بالشكر على أمانتهما ، غير أننا نستأذنها فى
 أن نقول إننا نوثر تصرف فترجرالد .

• • •

كلا ليس الخيام أبيقوريا ولا شبيهه ، وعلى أن الناس كثيرا ما يركبهم
 الخطأ والوهم فى أمر « أبيقور » أيضا فلعل هذه المقابلة الوجيزة التى
 سنجرىها بين الرجلين تكشف عن الحقيقة . ويعيننا هنا منها على وجه
 أخص عقيدتهما ومذهبهما الأخلاقى . لا ينكر أبيقور ما دان لهم الناس
 فى عصره من الأرباب ، لكنه ينكر تدخل الآلهة ، ويقول إنها لا تحمل
 على عاتقها عبء هذه الدنيا ، ولا تكلف نفسها حكمها وتسيير أمورها ،
 وانها (أى الآلهة) ليست إلا ما يتجه نظام الطبيعة ، أى إنها ليست سوى
 نوع راق من الإنسانية لا تتحكم فى الإنسان ، ولا هى خلقت الدنيا
 ولا وكلت بحفظها وتسيير أمورها ، وهذا عند أبيقور لا يستوجب أن
 يكف الإنسان عن عبادتها غير أن هذه العبادة إن هى إلا إجلال للمثل
 العليا للنعم التام ، ولا ينبغى أن لا يكون الباعث عليها لا الأمل
 ولا الدنوف ، والخيام يذهب إلى عكس ذلك وتقضيه ويقول إن القلم

سطر على اللوح كل شيء وان الأقدار صاغت آخر إنسان من أول طينة للأرض وبذرت في مبدأ الخليقة آخر ما يحمصد في هذه الدنيا ، وكتبت في أول صبح للوجود ما سوف يقرؤه آخر فجر « للحساب » ولا حيلة لأحد في تغيير كلمة واحدة مما جرى به القلم .

أبدأ يسطر ما شاء القلم ثم يمضى - نافذ الحكم أصم !
ليس يمحو نصف سطر ، وروع لا ولا يغسله دمع سجم

ويرفض أيقور نظرية القضاء المحتوم الذى لا مهرب منه ، ويأبى أن يعتنق مذهب القائلين بأن لهذا العالم نظاماً مقدرًا لا يتغير ولا يسع الإنسان إلا امتثاله والاذعان له ، وهو فى هذا يخالف « زينون » الذى يدين بالقضاء والقدر ، ولا يقف أيقور عند هذا الحد ، بل يتعداه إلى رفض الاضطراب فى دائرة العمل الإنسانى ، وإلى القول باستقلال البشر عن الآلهة ، واستطاعة الإنسان - كآلهة - أن يقف بمنجاة من المؤثرات الخارجية ، وأن « يعيش إنهما بين البشر » .

والخيام يقول بالقضاء والقدر ، ويذهب إلى أن أساس الكون ومحور نظامه هو الاضطراب والجبر ، وان القدر أزل والقضاء أعمى ، واننا آلات بأكف الأقدار نحرك كما تشاء أو رخاخ فى رقعة شطرنجها .

وليس لنا من إرادة ولا فى وسعنا أن نستقل أو يكون لنا رأى فى حياتنا . إنما نحن كرة يلعب بنا من ألقانا فى الميدان .

على أنهما اتفقا على شيء وهو أن الإنسان إذا مات فنى وانقضى أمره ، وإنه ليس له حياة غير هذه ، ومن هنا لا يخاف أيقور أهوال الآخرة ولا يرجو ثوابها .

ويقول الخيام :

عذت بالكأس لعلى بقمى استقى سر الحياة الأعظم
فأسرت شفة الكأس « ارتشف ! ما لمت رجعة من عدم ! »

ولا شك أن مذهب أبيقور مناقض للعلم ، وعلّة الخطأ فيه أنه لم يستطع أن يهتدى إلى انتظام الارتباط بين الظواهر الكونية ارتباطاً يجعل كل واحدة منها رهناً بما عداها ، ولا يجعل فى الوسع أن يفصل المرء احداها عن سائرهما وأن يفهمها على حدة .

أما فلسفة أبيقور الأخلاقية فضرب ملطف من الهينونزم أى القول بأن السعادة هى الخير فى الحياة ، وهى نتيجة منطقية لعقيدته ، بيد أنه لم يدع قط إلى الشهوانية البحتة الصريحة ، وإنما فعل ذلك أتباعه فيما بعد حتى صارت الأبيقورية والشهوانية الاباحية مترادفتين ، وليست اللذة عنده ما يقتنصه المرء من متع الساعة الحاضرة بل هى أقرب أن تكون عادة من عادات الفكر تلازم المرء طول حياته ، وحالة سلبية لا ايجابية ولا فعالة ، أو إذا شئت فقل إنها أشبه السكون والاطمئنان منها بالاستمتاع ، ومحك الاستمتاع عند أبيقور هو زوال كل دواعى الألم وتحمر الجسم منه واستراحة العقل من التعب ، فكأن السعادة عند أبيقور لذة جليلة رزينة - راحة القلب ، وخلو البال ، وانتفاء الآلام الجسمية والعقلية .

وأين من هذا الخيام ، إنه رجل لا يستقر على حال من القلق والتبرم ومن التساؤل والتفكير ، لا البحث يهديه ولا الكأس تسليه ولا الكتاب والرغيف وزق الخمر ، وغير ذلك مما ذكر فى شعره ، بمؤيته راحة النفس وفراغ الفؤاد وانتفاء الآلام . ولقد صار الموت عنده خاطراً مخامراً ينفص عليه كل لذة ويكدر له صفو كل نعيم . والفرع من الموت هو أساس

تفكيره والذي تقوم عليه كل نظراته . ومن ذا الذى يقرأ له هذه الصرخة الخارجة من أعماق قلبه ويخطر له بعدها أنه استشعر الراحة لحظة واحدة ؟ ايه أمهلنى بصحراء البيود أتذوق سر ينبوع الوجود ا أقل النجم - مضى الركب إلى فجر «لا شيء» فعجل ياموجود^(١) نعم قد يمزح فى بعض شعره ويتهكم بالعقل ويقول :

يا أخلاى لقد كنتم شهودى حين دار القصف فى عرسى الجديد
 طلق العقل عقيماً وغدت بنت هذا الكرم زوجى وعقيدى
 ولكنه تهكم الموجه الذى آلمه أن لا يهتدى إلى شيء وأن لا يحل لغزاً
 واحداً ، وسخرية اليائس الذى لا يرى إلا رضى دائرة على الناس بالارداء ،
 وضحك الساخط على عجزه عن تخلص رجله من شباك الأقدار وعن
 لمح بارقة واحدة تجلو له بعض ما خبأه الغد ، ومزح الأسف لاضطراره
 أن يرتد إلى اليوم الزائل حتى ليتمنى أن يقف على سر نظام هذا الكون
 ليمزقه ثم يعود فيصبه فى قالب أدنى إلى رغبة قلبه وهوى نفسه !

وعلى طالب السعادة الأبيقورية أن يروض نفسه على توخى الحكمة
 واستهداء الحزم فى الموازنة بين اللذات والآلام المقدره وأن يتلمس طريق
 الاستمتاع وأن يخطو فيه بحذر ، ومن هنا كان الحزم هو رائد السعادة
 الذى لا يكذب ، وهو لهذا عند أبيقور أسمى الصفات وأساس الفضائل ،
 بل هو كما يقول « قوة أنفس من الفلسفة » ولايد منه فى التماس الملاذ وفى
 تمرى نظام للحياة يكون أداة لسعادة . ومع أن الاحساس عنده هو واسطة
 التمييز بين الخير والشر إلا أنه يخضع للعقل ويدع له الفصل فى قيم
 اللذات بغية الفوز بهدوء النفس والجسم وراحة العقل .

(١) الموجود الظمان .

والعقل عند الخيام لا يغنى عن الإنسان شيئاً لأنه كفيف أعمى :

صحت- حيران- بأجواز السماء « أى نبراس به يهدى القضاء
صيبة تعثر فى هذى الدجى ؟ » فأجابتنى « بمكفوف الذكاء ! »

وأحسب الناس لما عجزوا عن اثبات استهتاكه على كثرة ذكره للخمر
ومحاسن التفرد والخلوة بقمره « الذى لا يعرف الأقول » كثرة ليس أدل
منها على وحشة صدره وآلامه ، ذهبوا يزعمونه صوفياً وينفون أن الخمرة
التي يذكروها « من عصير الكرم ، وأن ساقيه من اللحم والدم » واستشهدوا
بكلام له يقول فيه إنه يعاقر الخمر لعله يرشف من شفتها سر ينبوع الحياة
وإنه يلمح بارقة من سنا الحق فى ألحانه يخطئ مثلها فى المعبد المظلم .
ولا شبهة فى أن نشأته وكثرة غشيانه مجالس الفقهاء والصوفية ، وتعلقه
فى صدر أيامه بالجدل الذى كان فاشياً فى عصره - كل ذلك مضافاً إلى
استعداده الفطرى - ترك فى نفسه أثراً من التصوف مظهره نزوعه فى
شعره إلى البحث فى احساسه الدينى . غير أنه على هذا استطاع أن يخرج
سليم العقل موفور الصواب ، وأن يفتن إلى عبث الكلاميات . وقد أشار
إلى ذلك فى كثير من رباعياته منها :

خضت فى عهدى غمار الجدل وسمعت الشيخ يتلوه الولد
غير أنى كنت ألفى أبداً مخرجى ، بعد عنائى ، مدخلى

• • •

كم بذرنا حكمة العقل سواء وتعهدت بكفى النماء
وتأمل : ها حصادى كله : جئت كالماء وأمضى كالهواء !

فهو فى الحقيقة رجل حر الفكر لا يزال يحتج فى شعره على تحجر العقول
وضيقها وعلى تشدد المتعتين من أهل عصره ، وعلى شدوذ الصوفية

وهذيانهم . وإذا استعمل شيئاً من عباراتهم فإنما يتخذها أداة للنيل من التصوف الذى ضيع فيه خير شطرى عمره ، والذى لم يستطع أن يعيش مع ذلك بريئاً منه .

غير أنه مع هذا رجل متشائم يؤوس أعياء البحث فنكص وفر من الميدان ولم يشعر أن عليه مهمة فى هذه الحياة ، ورسالة يؤديها إلى أبناء الدنيا . ولو أنه أحس شيئاً من هذا لأغراه ذلك بالبقاء فى الميدان كغيره من المتشائمين الذين يشبههم من بعض الوجوه مثل بيرون وشويتهور .

كروبو تكين

حياة ضخمة

قل من الناس هنا من يعرف شيئاً - قل أو أكثر - عن البرنس كروبو تكين العالم الاشتراكي الروسي الذي جاءت الأنباء بأنه توفي بمدينة موسكو بالغا من العمر ثمانيا وسبعين سنة وإن كانت شهرته قد طبقت الخافقين وآثاره قد سارت في العالمين . على أن خير وفاته يفتقر إلى التأييد لاسيما بعد أن نفته موسكو . وليست هذه بأول مرة خفقت فيها أسلاك البرق بنعبيه فإن صح أنه حي يرزق وأنسا الله في أجله حتى يصل إليه تأيينه وما جرت به أقلام الكتاب في الاشادة بذكره واكبار أمره فليكونن في ذلك مسلاة له في آخر أيامه وفكاهة يتعلل بها فيما بقي من عمره . لولا أن مما قد يعكر عليه صفو هذه الفكاهة أن أكثر المادحيه ينظمون له عقود الثناء لا حبا فيه بل كراهة منه لقرينه لينين !

ولا نحب أن نكون من المتعجلين حتى في هذه !! فلندع ترجمته إلى حينها ولنسقى من حوادث حياته ومما لقيه من الناس ما له دلالة في ذاته فقد كانت حافلة بالتجارب المضمية التي ليس أقسى من امتحانها للصبر وعجمها للنفس والجسم جميعا ولقد ذهب بخير شطريها السجن ، واستبد بالشطر الثاني النفي ، ولكنه مع هذا لم يعرف عنه أنه شكى وتوجع أو بكى وتفجع ، وكان يدهش الناس بمراحه واتبساطه وإيمانه بفوز الحق في روسيا وسواها آخر الأمر . فهو من النوع الحقيق بالحياة الكفاء لأهوالها ومن طراز « بروميشيوس » - وطبد ركيز، لا يضعضعه عنت الأزمان ولا يزيد

إلا رسوخَ إيمان - ومن الطبقة التي تؤثر بمتانة الشخصية وبروزها أكثر مما تؤثر بآثارها العقلية .

والرجل ممن ضحوا بكل شيء في مصارعة ظلم القيصرية . والروسيون أول من يقدرون له جهاده ويذكرون له بلائه ويجازونه إحساناً بإحسان . حتى لينين نفسه - وهو خصمه في الرأي وعدوه في المذهب وإن جمعهما الخروج على النظام القديم - نقول حتى لينين نفسه عنى بتوفير أسباب الراحة للرجل في شيخوخته . روى المستر « ميكين » وكان مراسل الديلي نيوز في روسيا منذ عهد قريب أن حكومة السوفيت هت أن تسلب كروبتوكين بقرة له طبقاً لأمرها أن لا يكون لأحد شيء من الماشية إلا الزراع فأمر لينين أن لا يسبها أحد فبقيت له وما كان أنفعها له وأحوجها إليها . ولم يقتصر لينين على ذلك بل رتب له جراية خاصة أكبر مما يسمح به لغيره من الناس ليعينه على استرداد العافية والاحتفاظ بالصحة المتداعية . ولكن كروبتوكين أبى له ضبعه المستقل القوي أن يُعز عن سواه من جمهور الأمة وقال لا آخذ شيئاً لا سبيل لروسي عادي إليه . وظل في شيخوخته المريضة يعاني ما يتجشمه السواد الأعظم من أبناء بلاده ، وكان إذا غالبته الهموم آوى إلى مكتبته وتناساها في أعماله الأدبية . ثم إن ذخيرته من الزيت والشمع نفذت فكان يقضى الساعات الطويلة السوداء في ليالي الشتاء جالساً لا يعمل شيئاً ولا يجد حتى من يحدته . ولما جاء الربيع وتيسر استخدام الكهرباء إلى حد محدود ، سمع بعض العمال بما يقاسيه في ظلام الليل فحمل سلكاً إلى منزله وجهزه بمصباح . وكان قلما يخرج ، فإذا فعل حياه الناس ولاطفوه وأعربوا له عن اجلالهم له وحيهم إياه بوسائل شتى فيرتبك ويحس بحيرة شديدة ودهشة كبيرة .

ولم يكن كروبتوكين غنياً وإن كان من بيوت الشرف العريقة في

الروسيا ولكن بيته فى انجلترا مع ذلك كان يفتح يوم الأحد لكل اللاجئين الهارين مثله من سطوة الظلم القيصرى . وروى الرواة الثقة أنه كان قلما يصبح يوم الاثنين وفى بيته شىء يطعم . لأنه كان يشاطر الناس كل شىء . على أنه مع هذا كان يأبى أن يعيش على حساب الغير وكان يستطيع فى بعض الأحوال أن يعود إلى موطنه ويسترد أملاكه ولكنه رفض كل شىء وآلى أن لا يعيش إلا بكده وكسب يده ، حتى إنه لما كان يصدر فى سويسرا صحيفة « الثورة » وثقلت عليه وطأة النفقات ، تعلم صناعة الطباعة وجعل يصف الحروف بيديه ليقصد ويتمكن من المثابرة . وكان قوى البنية ولكن السجن هذه ، وسمع بعض أصدقائه فى انجلترا بأنه أصيب بمرض فى القلب وكانوا يعلمون رقة حاله وتحامله على نفسه وإرهاقها بالعمل فرجوه أن يقصد إلى مكان حسن الجو فى انجلترا أو غيرها وجمعوا له من المعجيين به مبلغاً كبيراً وطلب إليه أحدهم - شارلس روللى - أن ينزل عنده ضيفاً ليتيسر له إذا شاء أن يتمم كتابه الذى كان قد بدأه فى « التعاون » بعد نشر كتابه فى « التعاون بين الحيوانات » وكان غرضه منه اثبات القانون الطبيعى الذى أشار إليه داروين ، وهو أن التعاون من أكبر العوامل فى البقاء كالتنافس أو التنافس . فلم يستطع كروبوتكين أن يقبل اعانتهم إياه ورد المال كله ولم يسمح لهم حتى باستيقائه لزوجته وابنتهما « ساشا » . وقد حذق كروبوتكين أكثر لغات أوروبا وسأله بعضهم مرة بأيها يفكر ؟ فكان رده أن هذا يتوقف على الموضوع الذى يفكر فيه وإنه يفكر بالألمانية أو الفرنسية أو الانجليزية أو الروسية حسب مبلغ بحث أهلها للموضوع . ومع أنه مقيم فى الروسيا منذ سنة ١٩١٧ فقد انتقد النظام البلشفى الذى يعيش فى ظله بأصرح عبارة وتنبأ للجمهورية الشيوعية القائمة على استبداد حزب واحد بالفشل والاختفاق ولم يزل إلى آخر أيامه - إذا كانت

قد انتهت - متقد النفس وثابها وإن كان هرم الجسم ولم تضعف مواهبه ومداركه . وسيظل معروفاً في تاريخ المذاهب الحديثة بأنه مؤسس « الشيوعية الفوضوية » . ولا ينبغي أن يخطئ القارئ فيتوهمه من القائلين بالعنف فإنه إنما كان يرمى بدعوته إلى حمل من يدهم الأمر وسياسة الجماهير على تغيير آرائهم وتطهير قلوبهم . ومن منا - كما يقول - يبلغ من حكمته وطيب نفسه أن يحق له ارغام غيره ؟ ولقد عانى هو وأمثاله من غياب السلطة وضلالتها وعمايتهما ما زهده في أساليبها العنيفة وأغراه بوسائل المسالمة . فعنده أن تجديد نظام الاجتماع واصلاحه يستلزم :

أولاً - تحرير المنتج من نير الرأسماليين لكي يتأتى الإنتاج المشترك والتمتع الحر .

ثانياً - التحرر من نير حكومة موطدة حتى يتيسر للأفراد أن يتحدوا ويصيروا طوائف منتظمة انتظاماً حرّاً متدرجاً مترقيّاً من حالة البساطة إلى حالة التعقد حسب حاجاتها .

ثالثاً - التحرر من نظام الأخلاق الكنيسى والاعتياض منه الأخلاق الحرة التى تدعو إليها حياة المجتمع نفسه .

ومن رأيه أن احساس التضامن والتماسك خليك أن يعين أعمال الناس ويحددها وينبغى أن يترك لكل امرئ حق العمل كما يترأى له وأن يطل حق المجتمع فى عقاب الرجل من أجل عمل اجتماعى « إن جمهور الإنسانية - على نسبة التهذيب ومبلغ التحرر من القيود - سيعمل دائماً بطريقة نافعة للمجتمع » .

وأعظم قانون اجتماعى يدين به كروبوتكين هو قانون « التعاون المتبادل » وقد كتب أشهر مؤلفاته « التعاون » لشرح هذا القانون والدفاع عنه ضد

من ينحو نحو سبنسر .وخلاصته أن قانون التعاون أهم فى نشوء الاجتماع وترقيته من قانون تنازع البقاء .

وظاهر من موجز ما أوردناه من مذهبه أنه نتيجة رد فعل لاغراق النظام القيصرى فى ارهاق الروسيين وتقييدهم بكل أنواع الأغلال وتحميلهم جميع أنواع الظلم والعتى ، وواضح كذلك أن كروبوتكين من الثوريين الكماليين أو الفوضيين السلميين الذين يعملون بجعل الأرض فردوسًا من طوائف القرى والمدن الحرة المتعاونة وأن محلوا ذلك محل النظام الاوتوقراطى القيصرى . ولقد راعته ثورات سنة ١٩١٧ وهزته وفتحت عينه على الحقائق الأرضية غير أنه مع هذا كف عن كل معارضة لحكومة السوفيت وإن كان كما أسلفنا قد استنكر منها « مركزة » القوة السياسية والصناعية وأنمى بأعنف العبارات وأمرها على تدابير القمع التى رأت حكومة السوفيت أنها ضرورية للدفاع عن الثورة .

obeikandi.com

الجمال في نظر المرأة

اتفق لي في ليلة من ليالي العيد أن سمعت واحداً من مشاهير القراء يتلو سورة يوسف عليه السلام بصوت فيه من العمل ومن المجاهدة في مغالبة فعل الشيخوخة وتعويض ما فاته بتغيير روح العصر، ومن التصابي المرذول، ما أملنى وصدع رأسى، وإن كان جمهور الناس من حولى يصرخون طرباً وهو يجاريهم ويقارضهم صياحاً بصياح، ويكثر لهم مما بدا له أنهم محبوبه من النعمات ومؤثروه من التواءات الأصوات. والسرايق كأنه جوف بركان من فرط الجلبة بعد كل آية حتى تلا هذه الآيات :

﴿ وراودته التي هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألقيا سيدها لدى الباب . قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين . وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نساءه قد سغفها حباً إنا نراها فى ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت

أخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره لیسجنن وليكونن من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلین . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴿﴾ .

فكأنى ما كنت قرأت هذا ولا سمعته من قبل ونسيت تنقيص القارئ وثقله ، وذهلت عن ضوضاء الجمهور ، وانطلقت أفكر فى أمر يوسف وما لعله كان له من رواء ساحر وحسن باهر ، وذكرت هذه الصورة الملونة التى تباع له فى الطرقات ويقتنيها العامة وأشباه العامة والتى جعلها رساموها ما استطاعوا . وقلت لنفسى إني أعلم كما يعلم غيرى أن هذه السورة أحب إلى النساء وأثر عندهن من سواها من الكتاب الحكيم . ولكنى مع ذلك وعلى الرغم من المأثور عن جمال يوسف عليه السلام لو كنت مصوراً لخالفت أصحابنا الرسامين الذين أشرت إليهم ولم أجعله كما جعلوه شبيهاً فى حسنه بالمرأة . بل لكنت أتخيل له من معانى الجمال ما أظن أن المرأة بفطرتها أصبى إليه وأكلف به . لا ما ألفنا أن نعجب به نحن معاشر الرجال . وإذا كان هذا يحتاج إلى إيضاح فقد خطر لى أن أقول فيه كلمة أجعلها موضوع هذا الفصل .

يستغرب كثير من الناس رأى المرأة فى الجمال وما يبدو أحياناً من شذوذها فى ذلك عما ألفه الرجال شذوذاً لا مجال للشك فيه ويحيلون أكثر ما يلاحظونه من هذا على الزيف فى الفطرة أو السقم فى الذوق أو نقص التهذيب أو غير هذا وذاك مما يرجع إلى نشأة المرأة والأوساط التى عاشت فى ظلها . ولا ريب فى أن لهذا تأثيره إلى حد ما . ولكن هذا

لا يحل المعضلة . وما أسهل أن تنفض الأكف من كل مسألة بأن نحيل على اختلاف الأذواق والظفر صحة وسقماً . إذن لما بقى شيء يحتاج إلى نظر وتفكير !

ولو أن المرأة كان لها مثل حظ الرجل من القوة والعقل والقدرة على التفكير والتقصي والترتيب لعرفنا من رأيها في الجمال مثل ما عرفنا من رأى الرجل ولأراحنا ذلك من اجتهاد النفس للإمام بوجهة نظرها التي لم تكشف لنا عنها . ولكن طبيعة الحياة شاءت غير ذلك إلى الآن . وأبت أن تجعل الرجل ، والمرأة سواء . وحسبنا من الفرق ما بينهما من الاختلاف في تكوين الجسم وما لا بد أن ينتج عن هذا التكوين المختلف من الاستعدادات والكفاءات المتنوعة . ومهما قيل عن تساوى المرأة والرجل ، وعلى كثرة ما يلهج به البعض من أنهما لا فرق بينهما وإن الواجب أن يكون للمرأة مثل حقوق الرجل - نقول إن بينهما على الرغم من ذلك وسواه تبايناً جوهرياً . فليس للرجل اثناء ندر اللبن ولا ما يحول الغذاء إلى لبن يرضعه الطفل ويتغذى به ، وهو لا يحمل الأجنة في جوفه ولا في جوفه مكان معد لذلك . وكفى بهذا اختلافاً كبيراً يحيلهما مخلوقين ويجعلهما جنسين ونحن لم نأت من وجوه الاختلاف في التكوين إلا على بعضها وإلا على ما يحتمل المقام ذكره منها . وليس يعجز القارئ أن يتصور النوعين وأن يمضى في المقابلة إلى نهايتها .

وقد شاءت الطبيعة أن يكون الرجل أكثر تمثيلاً في حياته للفردية منه للنوعية ، فكتبت عليه - أو على الأصح استوجبت قوته منه - أن يتولى هو مكافحة الطبيعة بما فيها من قوى وكائنات من جنسه وغير جنسه وأن يتكفل بالسعى . والسعى يعرض للأخطار فلا مندوحة له عن الاحتيال لدفعها بالقوة إذا تهيأ له ذلك وبالمكر والتلبيز وحسن التصرف وما إلى

ذلك إذا خاتمه مُتته . ولما لم تكن الحياة لقمة سائغة فقد احتاج إلى مغالبة الصعاب ومعالجة تدليلها . وهو فى كل خطوة يخطوها يصادف ما ينبه غريزة حفظ الذات أو صيانة النفس ، ومن أجل هذا صارت هذه الغريزة أقوى وأنضج وأسرع تنبهاً وأكثر عملاً ، لأن حياته تجعل أعماله متصلة بها أكثر من اتصالها بغريزة حفظ النوع . وهو لذلك أحسن بها وأسرع تأثراً من ناحيتها . ومن هنا كانت الأنانية فى الرجل أظهر وأقوى . والعامّة يلاحظون ذلك ويفطنون إليه ويذهبون فيما وضعوه من أمثالهم إلى أن الأم أحنى على طفلها من أبيه . وقد ترى الرجل يداعب طفله برهة أو ساعة ، ولكنك قلّ أن تجد رجلاً يقوى على ما تقوى عليه المرأة من ملازمة الطفل ، والمثابرة على مداعبته ، والصبر على التحدث إليه ، ومن توهم فهم ما لعله يرسم على صفحة وجهه من الحركات ، أو يند عنه من الأصوات واحتمال ذلك وما هو أشق منه ساعة بعد أخرى ويومًا بعد يوم وشهرًا تلو شهر وحولاً عقب حول .

ولاحظ غير ذلك . أى الاتنين أصلح للتمريض ؟ المرأة بلا نزاع ! ذلك لأن المرض يرد المرء إلى مثل عجز الطفولة وحاجتها وما عسى صبر الرجل على الطفولة وما يضاهاها ؟ والمرأة أقسى من الرجل وأغلظ كبدًا منه على رأى « فيننجر » -- وإلا لما احملت أوجاع المرضى على نحو ما ترى وفر الرجل منها . أو هى تستفرقها الغريزة النوعية بكل ما تنطوى عليه وتلك حكمة من الله بالغة . ولولا ذلك لما استطاعت المرأة أن تقوم بوظيفتها الجنسية وما ينطوى تحتها من المشاق التى لا قبل للرجل بها . ولا شك أن بقاء النوع رهن بالمرأة على الأكثر وهى فى ذلك مثال التضحية التامة . وحسبك دليلاً ما تتعرض له من أخطار الحمل والوضع . وهى على علمها بهذا الخطر الحيوى وفزعها منه ، واستهواها له ، لو خيرت لاختارت أن

تستهدف له . وهى فيما عدا ذلك ليس عليها أن تجاهد جهاد الرجل
ولأن تعالج ما يعالجه من الكفاح والتدبير ودرء الأخطار وتذليل المصاعب .
ولهذا كانت المرأة أسرع تأثراً على العموم بكل ما له علاقة بالجنس والأمومة ،
لأنها وظيفتها دائرة على محورهما ، وهى لفرط احساسها بالأمومة تحب كل
رفيق لطيف - أى ما هو كالأطفال بالقياس إلى الكبار - وتعانهه وتقبله
ولو كان جمادًا لا يجيب ولا يحس لا العناق ولا التقبيل ولا يجازى لثماً
بلثم . وإذ كانت الغريزة النوعية فيها أكثر عملاً وأقوى فعلاً فهى أحس
بالجمال من الرجل وإن كانت أضيقت فهمًا له .

ولكن ما هو الجمال ؟ هو - كما عرفه بعضهم وأصاب - الاحساس
بما يهيج فى الذهن مركزَ التوليد من طريق مباشر أو غير مباشر أو بواسطة
تسلسل الخواطر . ولما كان بين الرجل والمرأة كل هذا الاختلاف فى
التكوين الجثمانى ، وفى الوظيفة التى يؤديها كل منهما فى الحياة ،
وفيما يترتب على اختلاف الوظائف من إرباء النضوج فى بعض الغرائز على
النضوج فى البعض الآخر ، فمن المعقول أن يودى ذلك إلى الاختلاف فى
النظر إلى الجمال ، وأن يكون الرجل الجميل فى نظر المرأة هو الذى تتوفر
فيه الصفات التى تحس بفطرتها أنها أكفلُ من سواها بحفظ النوع وأعونُ
على ذلك - شعرت بهذا أم لم تشعر - وليس من الضرورى حيثئذ أن
يكون الرجل وسيماً قسيماً فى نظر الرجال وأن يُرزق من الملاحظة وغضاضة
البزة وحسن الرواء ما يطلبه الرجل فى المرأة وبسببه منها .

هذا هو الأصل والذى درجت عليه الطبيعة . معانى الجمال عند الرجل
غير معانيه عند المرأة . ولكن المرأة مع ذلك طراً على رأيها شئ من
التحوير ، وأصاب احساسها مقداراً من التنقيح ، واستطاعت على مر الأيام
أن تكون قريبة من الرجل من حيث رأيه فى الجمال . وعسى من يسأل ،

وكيف كان هذا وما علته ؟ وجوابنا أن الرجل أقوى من المرأة ومن أجل ذلك وسعته أن يوحى إليها ويثبّ في نفسها رأيها واحساسه شأن الأقوياء مع الضعفاء ، ولا يخفى أن للإيحاء أثرًا لا يستهان به في كل آرائنا وعواطفنا وأعمالنا . وأكثر الناس مدين بعضهم لبعض بسبب هذا الإيحاء . والقوى يستطيع أن ينقل آراءه واحساساته ونزعاته إلى الضعيف ، وأن يتغلب على مقاومته ، ويثني عزمه ، ويُلين من جانبه ، وينسق له ما يختلط في ذهنه وتضطرب به نفسه على النحو الذي يريده تبعًا لمقدار قوته ويملغ إربائها على ضعف صاحبه .

ولعل معترضًا يقول : إذا كانت المرأة من الضعف بالقياس إلى الرجل بالمنزلة التي تصفها ، وبحيث يتمكن الرجل من الإيحاء إليها ومن قسرها على مشايعته ، فبأي شيء تعلق كون الرجل يعود العوبة في يد المرأة التي يجيها ، ويروح وهو أطوع لها من بناتها ؟ فنقول إنه لا شك في أن الرجل هو الأقوى وإنه كذلك بطبيعة تكوينه ، وتبعًا لما يراوله من الكفاح ويألفه من المقاومة والتدبير مما هو ضروري لحياته . ولا نغنى بالقوة الجسدى منها وإنما نريدها على الاطلاق ، فقد يكون المرء ضعيفًا ويكون مع ذلك أقدر على التدبير والاحتياط وحسن التصرف وعلى تفادى الأخطار ، ويبلغ بدهائه وعقله ما لا يبلغ سواه بمتانة الأسر وتوثق العضلات . وليس بصحيح أن كل رجل تغلبه المرأة التي يجيها على أمره ، ولكن هب هذا هكذا فأى غرابة فيه ؟ وما وجه العجب في أن تتضاءل قوة الرجل أمام قوة إرادة الحياة التي تسخر المرأة لبقاء النوع وللاحتفاظ بمزايا الجنس ؟ أليست المرأة المحبوبة تجمع في شخصها كل ما يروق الرجل من المعاني الجنسية ؟ أليست هي أقرب مثال مجسد لما يتصوره خياله من هذه المعاني ؟ فهو - كما قال صديقنا العقاد ونحن نتكلم في هذا - لا يواجه امرأة بل يقف أمام ممثلة

لجنسها جامعة في شخصها لكل ما في هذا الجنس من قوة ولكل ما لغريزة حفظ النوع من سلطان على النفوس .

ولكن هذا الضرب من الاستسلام ضعف على كل حال ، ودليل على نقص الرجولة . نفهمه ونعلله ولكننا لا نستطيع أن نحترمه ، لأن فيه القاء لسلاح الدفاع عن النفس . وليس من الاحتفاظ بالذات وصون النفس في شيء أن يسلم المرء نفسه إلى مخلوق آخر يبيت رهن اشارته . وإذا كان هذا دليلاً على شيء فهو دليل على أن الغريزة الجنسية قد طغت بغريزة حفظ الذات وغلبتها ، وإن مقدار الأنوثة في الرجل أربى على مقدار الرجولة فيه فعاد أشبه بالمرأة وإن كان له شكل الرجال .

ولو كنت مصوراً وبدا لي أن أثبت على اللوح صورة الرجل الجميل في نظر المرأة ، لآثرت أن أرجع إلى الأصل في نشوء فكرة الجمال عند المرأة ، وأن أثبت في وجه الرجل ما يناسب احساس المرأة بالغريزة النوعية ، وما تبحث عنه بفطرتها الذكية من الصفات التي تتطلبها هذه الغريزة . وهذا لا يمنع أن أجعل له نصيباً من الحسن كما هو ممثل في خواطر الرجال . بل إن الواجب أن يكون له حظ من ذلك ، لأن الذكور على العموم في كل حيوان أجمل من الاناث على عكس الشائع عند الناس - أو نحن معاشر الرجال نزعم ذلك ونستخلصه من المقارنات التي نجريها - ولكنني على كل حال ما كنت لأجعل له محيا امرأة كاللواتي نحس أنهن فتنة العين ومنى النفس ١

obeikandi.com

الرجل والمرأة في الهيئة الاجتماعية

حول رواية غادة الكاميليا
خلاصة الرواية - بحث في موضوعها - الممثلون

الكاميليا زهرة نضيرة بيضاء أو حمراء أو شتى الاصباغ ، منبتها الشرق ، ومنه نقلت إلى الغرب : والرواية التي نحن بصدها الآن من تأليف اسكندر دوماس الصغير ، ولعله بها أشهر من الكبير ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لأن مرجريت التي تدور على حياتها الرواية تجبها ولا تكاد تبدو إلا بها . وهذه أول رواية كبيرة تمثلها فرقة يوسف وهبي على مسرحها وموضوعها غاية في البساطة وحسن السبك : فتاة من بنات الهوى المترفات اسمها مرجريت (روزا اليوسف) يجها أرمان (يوسف وهبي) من أبناء الشرفاء ، وتجازيه هي حباً محب وإخلاصاً بإخلاص ، وتغضى عن ضيق ذات يده بالقياس إلى خطاب ودها من مثل دى فارفيل (استيفان روستي) والكونت دى جيرى (حسن فايق) وتذهب معه إلى ضاحية تقضى معه فيها شطراً سعيداً من حياتها التي ينغصها السلال . وكلما احتاجت إلى مال باعت مما تملك من حللى أو خيل أو غير ذلك مما يتعلق به هوى أمثالها من زينات الحياة ومتع الفرور ، وحبيها جاهل ما تصنع ، حتى إذا علم هم بالتصرف فيما ورث عن أمه وكر إلى باريس لانتمام ذلك تاركاً إياها مع عذراء من صديقاتها هي نيشت (فاطمة رشدى) وخطيبها جستاف (مختار عثمان) وكان والد أرمان (عزيز عيد) يعلم هذه العلاقة الغرامية ويتسخطها ، فذهب إلى مرجريت وصادفها في فترة غياب أرمان وانتهرها لتوهمه أنها

تخلبه ، فكاشفته بالحقيقة التي كتمتها عن أرمان وأرته عقود بيع أثارها وخبوها وما إلى ذلك فأنس إليها بعد الاستيحاش ، واطمأن إلى اخلاصها وسمو عاطفتها واتخذ ذلك ذريعة قاسية لحملها على التضحية بنفسها وبمجها في سبيل ابنته التي ارتهن مستقبل زواجها بيت ما بين أرمان ومرجريت من صلة ، فقبلت على مضض ووعدت أن تكتم السر ، وكتمت هي إلى أرمان رسالة قطيعة وعادت إلى باريس حيث عاودت حياتها الأولى ، وإن كان أرمان أبداً بالذكر والألم المر الفاجع بين العين والقلب . ويلاقيها أرمان على أمل الوقوف على سر القطيعة فتأبى إلا وفاء بعهدتها لأبيه ، ورعيًا لوعد الكتمان الذي بذلته وترغم أنها تحب فارفيل الذي صارت خليلته ، فيهيئها على مشهد من صواحبها وأصحابها ، فتصيها نوبة عصبية ويفدحها ما تحمل من ارهاق التضحية ، وفي كلمة منجاتها لو شاءت ، وتثقل عليها وطأة السل فتلزم الفراش ، وفي هذا الدور يكتب والد أرمان إليه بالحقيقة ، وإلى مرجريت برسالة يعللها بها ، فتعزى بأخيلة الماضي وما تتوقع من حضور أرمان إليها ، ويأبى القدر أن يوافقها حبيبها إلا في آخر أيام دنياها ، ويأبى الفن على المؤلف إلا أن يجعل هذا يوم زفاف نيشت ، وإلا أن تدعى مرجريت إلى الكنيسة لمشهوده ، وإلا أن تعتذر من التخلف بأنها ستموت قبل تمامه وإلا أن تأتي العروس في حلة زفافها ومعها بعلمها السعيد بها إلى البيت الذي يوشك أن يقوم فيه المأتم . وإن مرجريت لتعلم أنها لا محالة قاضية نجحها في يومها هذا ، ولكن رؤية حبيبها تعشها وتشعرها ديب الحياة التي عادت مطلوبة بعودة حبيبها والتي يغالبها القضاء المحتوم فتفني ولكن افاقة الموت ، وتستجد قوة ولكن كلسان الشمعة يثب وقد أشرفت على الفناء ثم تهوى جثة هامدة بين ذراعيه .

هذه هي خلاصة الرواية التي وضعها دوماس الصغير في عام ١٨٥٢ بعد أن صاغها قصة قبل ذلك بأربع سنوات وهي ، كما يرى القارئ ، دفاع عن المرأة زلت بها القدم وأبى المجتمع أن يفضرها زلتها ، وأحسب المؤلف أراد أن يقول إنه ما من إنسان يكون كل ما فيه شرًا ، وإنك قد تجد في

النفوس المنيبوذة ، لخروجها عن عرف الجماعة ومألوف أنظمتها ، عناصر من الخير قد تخطتها فيمن يلتزمون هذا العرف والمألوف . وكأننا به أراد أن يقابل بين أثره والد أمران واصراره - يرغم اجلاله لعاطفة مرجريت واعتقاده فيها الشرف وسمو النفس وعلو الروح - على أن تضحي بنفسها من أجل ابنته ، وبين ما استطاعته مرجريت وحملت نفسها على مكروهه من الايثار والتضحية - نقول كأننا به تعمد هذه المقابلة ليحمل القراء أو السامعين المتفرجين على مشايعتهم إياه على رأيه ومجاراته في مذهبه ومسايرتهم له إلى غرضه . ولكن ما غرضه ؟ إن كان كل نفس فيها من الخير والشر عناصر ، ولها من الفضيلة والرذيلة حظوظ ، وإن قبح المجتهد قد يكون دونه عفاف سر وحسن مختير ، فمن ذا الذى يجزؤ على المجادلة بالخلاف فى ذلك ؟ من الذى يحسب أن النفس الإنسانية يمكن أن تكون كلها شراً محضاً أو خيراً محضاً ؟ بل من ذا الذى يخطر له أن الشر يوجد صرفاً والخير يتجسد محضاً ؟ بل نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك وتساءل : من من الناس لا يعلم أن الزواج فى صورته الحالية طارئ على المجتمع وإته لم يكن موجوداً فى العصور الأولى التى مرت بالإنسان - عصور الاستيحاش التى اجتازت دورها الجماعات البشرية قبل أن تنشأ هذه الأنظمة المدنية القاسية المعقدة ؟ نعم الخير والشر صنوان يلزمان معاً ، ولا ينبت كل منهما على حدة . ولا شك أنهما كعود الزهر فيه الوردة المعطار والشوكة الواخزة ، والثابت أن الزواج نظام طارئ حديث وإن كان قديم العهد . ولكن أليس له مظهر يقوم مقامه فى حياة الإنسان الأولى ؟ فى عصور الحمجية الفطرية حين كان كل امرئ مرسلأ على سجيته ، منطلقاً وفق غريزته ، دون ما كايح من عرف منظم أو قانون مشترع ؟ ونسأل قبل ذلك ما هو الزواج ؟ أليس هو طريقة لتنظيم علاقة الرجل بالمرأة وما يترتب على ذلك من النتائج المتعلقة بالنسل ؟ أليست غايته تنظيم علاقة الحب لخدمة للنوع ؟ وليس هذا فيما نعلم بالجديد فى تاريخ الإنسانية . فأما الحب ، فهو قوام غريزة حفظ النوع ، وما هو بالطارئ

ولا بالذى بعثت عليه حالة الاجتماع المنظمة الحديثة وهو ينشأ فى حيشما يلتقى إنسانان من جنسين . لأنه الوسيلة التى تتخذها الحياة لبقاء مظهرها الإنسانى ، أو بعبارة أخرى هو الأداة التى تستخدم لحفظ النوع ، والحب من مميزاته - لا بل من لوازمه - الأثرة التى تتطلب الانفراد بالمحجوب وتتقاضاه الوفاء ، وليس الوفاء فى الحقيقة إلا مظهرًا لشهوة الملك والاحتياز ، وهى شهوة عريقة فى الإنسان ، وما أكثر ما يرضن المرء بالتافه من الاحراز والأملك لا اكبارًا له ولا تعلقًا به لنفاسة فيه ، بل كراهة منه لأن يحوزه سواء ؟

وقد يعيننا أن نتصور ما أحسه الإنسان الأول - إن كان قد أحس شيئًا - حين ألقى نفسه فى عالم لا يعلم من أمره شيئًا ولا يفهم من ظواهره لا كثيرًا ولا قليلًا . على أنه لا شك أن الأجيال الإنسانية الأولى اكنهت معنى ما يحيط بها من ظواهر الطبيعة والحياة شيئًا فشيئًا ، وإن أعينهم كانت تتعقب الدائرة الرضاءة بين طرفى السماء ، وأنهم لاحظوا النار والنور اللذين يأتیان من حيث لا يعلمون وسمعوا جلجلة الرعد وأصداه فى مخارم الجبال ، وشهدوا اتفاق ذلك وما تحدثه العاصفة من التخريب ، وإن احساساتهم وحاجاتهم كثرت وتضاعفت وتنوعت وألحت عليهم ولجت بهم ، فاندفعوا فى طريق العمل والتفكير ، وساعفتهم الغريزة ، واضطروهم لفتح الشمس إلى الاستنزاء بالشجر وتوشيح أغصانه وخافوا فعل البرد فاكسوا جلود الحيوان ، ولما لم تكفهم الغيران والكهوف الطبيعية ، ولا وقت بحاجاتهم ، صنعوا لأنفسهم ملاجئ فى أحضان الجبال ، والتمسوا النار وبعثوا النار وشحذوا الحجاره ليتخذوا منها أداة أو سلاحًا - وفقوا إلى ذلك وسواه على مر الأيام ، وبالتدرج ، لا طفرة واحدة . ولكنهم لم يتعلموا الحب بالتدرج ، ولا عرفوا ما يثيره من الأثرة وطلب الانفراد

دون سائر المخلوقات بسببه وباعته على كره الحقب . بل لقتتهم الغريزة ذلك مذ وجدوا على ظهر الأرض كما أودعت غيرهم من المخلوقات ما يشبه ذلك وركبت طبائعها على الذود عن صغارها .

فأباؤنا الأولون كانوا يحتازون مثلما نحن نتزوج ، ويأبون إلا الاستئثار كما نأباه ، ويطلبون الوفاء الذى نطلبه ، ويغارون غيرتنا ويدافعون عننا استأثروا بهن من النساء دفاعنا عن زوجاتنا ، وليس من فرق على الحقيقة سوى هذا العقد الذى يكتب ويسجل وتنظم به علاقة الزوجية وما ينشأ عنها من النسل والميراث .

وعسى من يقول : ولكن الإنسان لا يأبى المشاركة فى الطعام فما باله يأبأها فى الحب ؟ فنقول ليس الغرض من الطعام ما عسى أن يجده الآكل من اللذذة المستفادة من نكهته ومذاقه ، بل ما يؤدى إليه من الصحة ويكسب المرء من القوة التى يستعين بها على أداء مهمته فى الحياة . وليس له بعد ذلك غاية ولا ثم غرض آخر غير المساعدة على حفظ الذات . والقليل منه يكفى حتى إذا توفر الكثير ، وقد تغلب عاطفة التعاون على التنازع . ولعل المشاركة فى الطعام أشد أحياناً للشهوة ، وأعون على إصابة القدر اللازم منه ، وفى هذا ما يغرى بها ، ويجعلها مرغوبة ومطلوبة ، فالأنس المستفاد من اجتماع الأوداء ، والغبطة التى يجدها ذلك ، وتنبه المعدة ومنحذها بهذه الطريقة ، من العوامل المعقولة فى جعل المشاركة محبوبة أحياناً ، ولكن الإنسان مع ذلك أخلص لطبعه من أن يرضى هذه المشاركة فى كل حال . ولنفرض مثلاً أن الطعام قل أو حدث فحط لسبب من الأسباب وطغى الجوع بالناس . أتظن حينئذ أن المرء تطيب له هذه المشاركة ؟ ألا يخطف المرء ويستأثر بما تصل إليه يده ؟ ألا يقتل فى سبيل اشباع بطنه ؟ نعم قد تكون النفوس أقوى من الجوع فيتغلب التعاطف

على سورة السغب وجنونه ، ولكننا إنما نتكلم عن أوساط الناس لا القليلين النادرين من الشواذ الذين تسمو بهم نفوسهم وتحلق فوق جماهير الخلق . ثم لماذا نرى الجود مما يمدح به الناس بصفة خاصة ؟ قد لا يكون الجود مما يدور عليه الشاء فى العصور الحديثة . ولكن الأدب القديم حافل به . فلماذا خطر لهؤلاء الناس أن يميزوا بمدوحهم بالجود إذا كان ذلك عامًا طبيعيًا ؟ لم كان حاتم الطائي مثلًا خالد الذكر لأنه كان ينحر نياقه أو خيله لضيفه ؟ ولسنا نعنى حاتمًا على وجه التخصص وإنما نتخذة رمزًا لأمثاله وأنداده من أجواد العالم المذكورين . ليس الأصل فى الإنسان الكرم ولا الايثار ولا شيئًا مما يجرى هذا المجرى ، وإنما الأصل فيه أن يعمل وفق غريزته الكبيرين : غريزة حفظ الذات وغريزة حفظ النوع . فإذا كانت المشاركة أعون على ذلك فيها وإلا فلا شىء إلا الأثرة والأناثية فى أقسى مظاهرها .

وإذا كانت المشاركة فى الطعام معقولة أحيانًا لما تعين عليه من شحذ المعدة وتقيده من الأتس والغبطة فليس مما يتصوره العقل أن يكون من شأنها أن تعين على الغاية من الحب وهى حفظ النوع . ولا هى يمكن أن تفضى ، فيما تفضى إليه ، إلى الايناس وشرح الصدر وغبطة القلب ، وحسن العاطفة فى تبادلها وفيما يحسه المرء من صداها فى غير صدره وتجاوب قلب آخر بها . والحب كما أسلفنا يثير شهوة الملك فى نفسى المتحابين واستتار كل منهما بالآخر ، هذه طبيعة العاطفة التى نحن بصدها . وكذلك كانت مظاهرها قديمًا وكذلك هى الآن وغدًا وفى كل أوان . فماذا يريد دوماس ؟ وأى شىء يعنى أن يقول فى روايته ؟ أن لا ننقم من البغى شيئًا ؟ وأن نجعلها ونزلها منزلة المحصنات اللواتى يأتين أن يجعلن أنفسهن كالشمس لكل الناس ؟ إن الفضائل لم توجد فى الدنيا عبثًا . وإذا كان الملل فى

طبيعة النفس البشرية ، وطلب التحول والتنقل كالتحلة بين زهرات الحياة معقولاً فإن ذلك لا يسوغ البغاء ولا ينفي ضرورة العفة .

أم نفضل ذلك رحمة منا بالضعيفات اللواتي يهوين إلى هذا الدرك ولا يستطعن أن يقاومن المغريات أو يجتنبن حباثل الرجال ؟ حسن أن نكون رحماء وأن نعتفر الزلات ولكن لمن ؟ لمن يستحق ذلك ، لا لمن تريد أن تعيش عيلاً على المجتمع وحميلة على الخلق وأن تجرر أذيال الغنى وتقضى أيامها فى ظل البذخ والترف بغير حق وعلى حساب الشريفات المحصنات - وإذا كان هؤلاء لا يطقن أن يغالبن المؤثرات وأن يفزن على المغريات فهن ضعيفات قد يدرك الفرد العطف عليهن ولكن الحياة لا ترحم ولا تترى لأحد وليس فى الطبيعة محل للضعيف .

وقد يكون هوى أرمان فى هذه الرواية مما يعجب الشبان ويروق ضعاف النفوس والاعرار ، ولكنه ليس فيه شيء مما يعجب الرجولة ويقع من قلب الفحل ذى القوة - هذا لا يفهم كيف يذيب الحب النفس ويحلبها كالقميص البالى الذى لا يصلح لشيء أو الورقة المبلولة ، ويقعدها عن أداء مهمتها فى الحياة والنهوض بفرائضها ، ولا يترك لها من عمل سوى البكاء والعويل أى التخث المرذول .

هذه كلمة لم نبدأ من قولها عن رواية دوماس التى شقت له طريق الشهرة . فلسنا ممن يوافقونه على فكرته التى بثها فيها ، وأنشأها لأجلها ، ولا ممن يحمدون هذا النوع من الحب الذى يذوى النفس ، ويعصف بالرجولة ، وينسى المرء فرائض الحياة . وقد كان تمثيلها بديعاً وأداء الذين قاموا بأدوارها جيداً . وجاء حسن التمثيل مسعداً لموضوع الرواية حتى اغرورقت مآق كثيرة !! والسيدة روزا اليوسف حقيقة بأعطر الثناء على

جودة تمثيلها على الرغم من أن دورها فادح طويل مرهق ، ولقد بلغت في الفصل الثالث الغاية التي ليس وراءها مطمح وذلك حين يتوسل إليها والد أزمان أن تضحي بنفسها وتبذل جيبها فداء لابنته ، وهي جالسة ساجدة في عباب طاغ من العواطف الجائشة المتعارضة ، وبين يديها زهرة الكاميليا تنثر غلائلها ولا تعي ما تفعل . ولم نر أعظم ولا أبهر من قدرتها في هذا الفصل عينه حين يعود حبيبها وتغالب دعمها المترقق وتعالج أن تتسم وتضحك وفي صدرها الفائر جحيم من الألم تصارعه . ولو أنها أضافت شيئاً من السعال في الفصل الأخير إلى تمثيلها الذي لا يبارى وقطعت كلامها لما وجدنا مأخذاً ما .

وأجاد يوسف وهبي أداء دوره وعرف كيف يجعل حركاته طبيعية ملائمة لمواقفه ، وأعجبنا منه على وجه الخصوص اقتداره على تمثيل الزراية والاحتقار وجعل نظرتة وهيئة جسمه في رفقته أصدق ناطق بذلك ، وحبكه دور الخائر الذي لا يفتن إلى ما انتوت حبيبته من مهاجرته .

والآنسة فاطمة رشدي ماذا نقول عنها ؟ كيف تمثل غرارة الصبي وسداجة النفس واطمئنان القلب إلى حب الحبيب وفرحه بقره إلا كما فعلت ؟ إن هذه الفتاة آية ولا يخالجننا شك في أن مستقبلها سيكون أبهر وأروع . ذلك أن لها ، كالسيدة روزا ، قدرة عظيمة على تقمص الدور وتشرب روحه بحيث تصدر عنها كل كلمة أو حركة وكأن الأمر واقع والمسألة حتمية . ومن مزاياها الواضحة التي تدل على استعدادها للتمثيل أنها تنسى الجمهور كأنه غير موجود ، وهذا هو الواجب ، فإن على الممثل أن يتفرغ لدوره وأن لا يفرض أن هناك أحداً ينظر إليه ، على عكس الخطيب الذي لا يسهه إلا أن يعنى بجمهور السامعية وإلا أن يلاحظ التيار بينهم ليتمكن من توجيهه وجهته التي يريدتها هو .

ونحب أن ننبه الأستاذ عزيز عيد إلى وجوب التمكن من استظهار دوره ، فإن عدم الحفظ يضطر الممثل إلى جعل باله إلى الملقن ، فيصرفه ذلك عن تجويد دوره ، ويجمله على ملء الفترات بين الجمل أو أبعاضها ، بحركات قد لا يكون لها محل ، أو تكون كثرتها وتواليها بلا مبرر سوى نسيان الكلام ، من بواعث الضعف في التمثيل ، ولم نكن لننبه إلى ذلك لولا إعجابنا بقدرته ، واعترافنا بمواهبه ، ورجبتنا في تنزيهاها عن هذا العيب الصغير الذي لا تستعصى مداواته .

وقد أطلعنا فليقنع الباقون من زملائهم بالشكر منا لهم على ما أجادوا وأحسنوا .